بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد رسولِ الحق إلى كافة الخَلْق، وغَمامِ الرَّحمة الصّادق البَرْق، والحائزِ في مَيدان اصطفاء الرحمن قَصَبَ السَّبْق، خاتمِ الأنبياء، ونبيّ الهُدىٰ، الذي طهر قلبه وغفر ذنبه وختم به الرسالةَ رَبُّه، خيرِ من وطِئَ الثَّرىٰ، من لو حازت الشمسُ بعضَ كماله ما عُدِمَت إشراقًا، أو كان للآباء رحمة قلبِه ذابت نفوسُهم إشفاقًا، وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن موضوع هذا البحث لم يقتصر على المفهوم الشائع عن البيئة، والذي حددها بأنها كل ما يحيط بالإنسان من مخلوقات ومظاهرَ طبيعية. ولكننا ننظر للبيئة على أنها الإنسانُ وكلُّ ما يحيط به؛ وذلك لأنه ليس ثمَّة سبب منطقي يُخْرِجُ الإنسانَ عن كونه جزءًا من البيئة، وهو أهمُّ جزءٍ فيها، وصلاحُها مرتبط بصلاحه، وفسادُه وعدمُ المحافظة عليه من الناحية النفسية والعقلية والجسدية بتنمية قدراته يُعدُّ أكبرَ فسادٍ في البيئة.

والخلافةُ والأمانة التي هي وظيفةُ الإنسان في الأرض تَعني الاعتناءَ والرعاية بالإنسان أولًا، ثم بغيره من الكائنات، وذلك لا يكون إلا بهدايته إلىٰ المنهج السَّويِّ في إعمار الكون وفهمِ مراد الحق سبحانه وتعالىٰ من الوجود.

والخلافة في الأرض بالمفهوم الإسلامي تعني تَحَمُّلَ الإنسان لمسئولية إعمار الكون والمحافظة علىٰ البيئة، وذلك في مقابل ما يُنَعَّمُ به الإنسانُ من تسخير الكون في خدمته وسعادته.

والتسخيرُ هو انتفاع الإنسان بصفته الإنسانية بخيرات الكون وطيباته، ولذلك فلا يحق لإنسان -تبعًا للمنهج الإسلامي- أن يَستأثرَ بهذا النفع دون غيره علىٰ المستوىٰ الزماني أو المكاني.

فقد نَصَّبَ اللهُ الإنسانَ حارسًا وخليفةً في الكون، وجعله مهيمنًا علىٰ ما فيه من منافعَ وتسخيراتٍ- حتىٰ يظل سيِّدًا وخليفةً فلا يُحْتَكَمُ عليه من غير جنسه، وهي مسئولية يُحاسَبُ عليها في الآخرة ويُجازىٰ بمقتضىٰ فِعله فيها: إن خيرًا وصلاحًا فخير، وإن شرًّا وفسادًا فشر.

وإعمارُ الكون والمحافظةُ علىٰ البيئة عمليةٌ تقوم علىٰ بُعدَيْن:
البُعد الأول: يتعلق بالتصورات العقائدية التي ترسُم العلاقاتِ بين

الإنسان والكون والإله. **والبُعد الثاني**: يتعلق بالتصورات الفقهية، والتي تَصدُرُ عنها الأحكامُ الشرعية، والتي تُنَظِّم العلاقاتِ بين الإنسان والكون وبين الإنسان والخالق.

ويهدف البحثُ إلىٰ توضيح ما جاء في الإسلام من تصورات عقائدية وأحكام فقهية جعلت الإنسان مُطالَبًا وقادرًا ومدفوعًا إلىٰ المحافظة علىٰ بيئته الإنسانية، والمشاركةِ والتعاون علىٰ عدم الإفساد فيها، وتوضيحِ أن الشرع الإسلاميَّ لم يقف عند حدود المحافظة بل تعدّاها إلىٰ التنمية والإصلاح وغير ذلك؛ لأن الإسلام حضَّ علىٰ العمل والتَّفَكُّر والبحث عن أسرار الكون استدلالًا علىٰ الوجود الإلهي ووصولًا إلىٰ المحبَّة.

فالتَّصورُ الذي رسمه الإسلامُ للسماء والأرض والجمادِ والنبات والحيوان كان أَدْعَىٰ إلىٰ حصول الاهتمام والرعاية من الإنسان لبقيَّة المخلوقات، بل والرفق والرحمة والمحبة؛ لأن المسلم بحبه لله تَحْصُلُ في قلبه المحبةُ لكل ما خلق الله وأبدع.

ويوضِّح البحث ما جاء في النصوص الشرعية من ثُنائياتٍ ترسُمُ التصورَ الإسلاميَّ للوجود، مثل الخلافةِ والتَّسْخيرِ، والحق والواجب، والمنهج والبناء، والمحافظة والمحبة، والمنفعة والجمال.

أما أولاً: الخلافة والتَّسْخير

الخلافة تعني: المسئولية عن الكون برعايته والمحافظة عليه، والتسخير يعني: الاستفادة منه والاستمتاع به، وكلاهما يقتضي المشاركةَ والتعاون. والمسئوليةُ تقع علىٰ الناس جميعًا كما أن الانتفاع حَقٌّ مَكْفول للجميع ومُشْتَرَكٌ بين الناس بصفتهم الإنسانية، لم يجعله الله حقًّا لقومٍ أو فئةٍ دون غيرها.

فالمؤمن يعتقد أنه عبْدٌ مخلوقٌ لله مثل بقية المخلوقات، سواء منهم الإنس أو الجن أو الجماد أو الحيوان، وقد جعله الله أمينًا ووكيلًا يحافظ علىٰ الكون ولا يستأثر به ولا يطغَىٰ بالسيطرة عليه؛ لأنه حق جعله الله شِرْكًا بين الأحياء جميعًا، فلا يحق له أن يحرم منه حتىٰ الحيوان.

فإن الله خلق الإنسان في هذا الكون وحيدًا عاجزًا عن إيجاد الأشياء التي تضمن له البقاءَ في الحياة، فَيَسَّرَ الله له رِزقَه وسخَّرَ له الأرض والسماء والشمس والسحاب وغيرها حتىٰ تُوَفِّرَ له الماءَ العذب والهواءَ النقي والطعامَ الشهيّ؛ وذلك لأنه سبحانه لم يُرِد من الإنسان أن يأتيَه قهرًا تحت وَطْأَةِ الحاجة والعَوَزِ للطعام أو الشراب أو غير ذلك، وإنما أراده أن يختار الإيمان طَوعًا ويصل

إلىٰ اليقين بوجوده وحكمته عن طريق التَّفكُّرِ والتأمُّل في قدرته علىٰ الخلق والإبداع.

وأما ثانيًا: الحق والواجب

فالحقُّ هو الحقُّ المشترك بين الناس في الاستمتاع والانتفاع بعطاء الله ورزقه، الذي لم يَجعل أحدًا كفيلًا علىٰ آخَرَ في الوصول إليه، والواجب: هو واجب الرعاية والمحافظة علىٰ الكون والوجود؛ لأن هذا هو مقتضَىٰ الخلافةِ والأمانة التي تحمَّلها الإنسان.

والشَّرع الإسلاميُّ ارتقىٰ بالحقوق وقَدَّسَ مكانتها حتىٰ غَدَت واجبات علىٰ الفرد والجماعة، وأَدخلَ حقوقَ الإنسان ضمنَ حقوقِ الأكوان، فهي دائرةٌ أعمُّ وأشمل، ومعنىٰ ذلك أنّ الشرعَ إذْ أعطىٰ الإنسانَ حقَّ المُعتَقَدِ مثلًا فقد أوجب عليه حفظَ الدِّين بإقامة الشعائر والعبادات، وإحسانِ التعبير والدعوةِ إليه، وعليه أيضًا أن يطالِبَ بهذا الحقِّ بل ويجاهدَ دونه ولا يتنازل عنه، لا في حقه فقط بل وفي حق غيره، بمعنىٰ أن يطالب المسلمُ المجتمعَ الإسلاميَّ وغيرَه أن يَكفُل للإنسان حقَّ المُعتقَد وحق التعبير عنه بِحُرِّيَّة ودون قهرٍ أو إكراهٍ، وهكذا فهي دائرةٌ واحدةٌ، الحقوقُ والواجبات فيها وجهان لعملة واحدة.

فحينما أوجب الشرع علىٰ المسلم حفظ الأعراض مَنَحَه حقًّا علىٰ المجتمع كلِّه أن يحفظ عليه عِرْضَهُ وشَرَفَه وكرامَتَه من أيِّ اعتداء يصيبه، ويَبذُلُ المجتمعُ وُسعَه في حمايته والمحافظةِ عليه من أيِّ امتِهانٍ مهما كلَّفهم الأمر، فحماية عِرض الأفراد حقٌّ لهم واجبٌ علىٰ مجتمعهم الإسلامي، ومثل ذلك أموال الفَرْد، فهي مُودَعَةٌ في ضمان الجماعة وحمايتها.

والشرع الإسلاميّ لم يجعل للإنسان حقًّا في إهْدار بُنيانه، بل أوجب عليه احترامَه ورعايةَ حقوقه، وأوجب عليه احترامَ كرامتِه وصيانَتها من الدَّنَسِ، وأوجب عليه العملَ لئلا يُضطرَّ إلىٰ اللجوءِ إلىٰ الخَلْق بِمَذَلَّةٍ أو مَهانَةٍ.

ومن نفس المنطق تعاملت الشريعة الإسلامية مع العَلاقة بين الإنسان والبيئة، فكما أوجبت عليه المحافظةَ والمشاركةَ والرحمةَ والرفقَ جعلت له حقًّا يُطَالِبُ به، وهو أن يعيش في بيئةٍ نظيفةٍ جميلةٍ، يشعر فيها بالحرية والكرامة.

وقد كان المُحْتَسِبُ في الدولة الإسلامية يقوم بدور كبير في المطالبة بحقوق الأفراد في التَّنَعُّمِ ببيئة نظيفة وخَدَمات راقية، وكذلك في إلزامهم الإحسانَ والإتقانَ في العمل.

وإنه لأمرٌ يدعو للانبهار بالمستوىٰ المُتَحَضِّرِ الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية.

فقد كان المُحْتَسِبُ -علىٰ سبيل المثال- يطالب الخَبّازَ بأن يَكُونَ مُلَثَّمًا؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا عَطَسَ أَوْ تَكَلَّمَ، فَقَطَرَ شَيْءٌ مِنْ بُصَاقِهِ أَوْ مُخَاطِهِ فِي الْعَجِينِ، وَيَشُدُّ عَلَىٰ جَبِينِهِ عِصَابَةً بَيْضَاءَ؛ لِئَلَّا يَعْرَقَ فَيَقْطُرُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْعَجِينِ، وَيَحْلِقُ شَعْرَ ذِرَاعَيْهِ؛ لِئَلَّا يَسْقُطَ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْعَجِينِ، وَإِذَا عَجَنَ فِي النَّهَارِ فَلْيَكُنْ عِنْدَهُ إِنْسَانٌ فِي يَدِهِ مَذَبَّةٌ يَطْرُدُ عَنْهُ الذُّبَابَ[1].

وكان يضع شروطًا لمُمارسة الطب، ويُشْرِفُ علىٰ تَحَقُّقِها فيمن يُزاول المَهنَةَ، فَالطَّبِيبُ هُوَ الْعَارِفُ بِتَرْكِيبِ الْبَدَنِ، وَمِزَاجِ الْأَعْضَاءِ، وَالْأَمْرَاضِ الْحَادِثَةِ فِيهَا، وَأَسْبَابِهَا وَأَعْرَاضِهَا وَعَلَامَاتِهَا، وَالْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ فِيهَا، وَالاعْتِيَاضِ عَمَّا لَمْ يُوجَدْ مِنْهَا، وَالْوَجْهِ فِي اسْتِخْرَاجِهَا، وَطَرِيقِ مُدَاوَاتِهَا، لِيُسَاوِيَ بَيْنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوِيَةِ فِي كَمِّيَّاتِهَا، وَيُخَالِفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ كَيْفِيَّاتِهَا.

---

(١) عبد الرحمن الشَّيْزَرِي: «**نهاية الرُّتبة، في طلب الحِسبَة**» ص٢٢، تحقيق: د/ السيد الباز العريني. دار الثقافة- بيروت.

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَا يَحِلُّ لَهُ مُدَاوَاةُ الْمَرْضَىٰ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَىٰ عِلَاجٍ يُخَاطِرُ فِيهِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ إِلَىٰ مَا لَمْ يُحْكِمْ عِلْمَهُ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ[1].

وقد أحاطت الشريعةُ أمرَ المحافظة على البيئة بتشريعات كثيرة ضَمِنت ارتباطَ إعمار الكون وتنميته بالإطار العام للدِّين، وإن مقرَّرات الشريعة الإسلامية لتستهدف دائمًا صلاح الفرد والجماعة في غير عُسْرٍ ودون ما حَرَجٍ.

ولذلك شَرعَت العقوبات المقررة على الأفراد، وفَرَضَت عليهم جهاد المُعْتَدِين المفسدين قاصدةً عِمارةَ الأرض، هادفةً المحافظةَ عليها ومَنْعَ الفساد فيها أو العبث بحياة المخلوقات عليها. والفسادُ في الأرض له صُوَرٌ متعددة فهو يشمل الظُّلمَ والقتلَ والجُحودَ والتخريبَ، ويجب على المسلم الامتناع عن كلِّ أشكال الفساد وصُوَرِه.

وأما ثالثًا: المنهج والبناء

إن الشرع الإسلاميَّ جعل إعمارَ الكون أمرًا واجبًا وضروريًّا على الإنسان دِينًا ودُنْيا، وهذا الإعمارُ عامٌّ يشمل كلَّ الوجود

(١) المرجع السابق، ص ٩٧.

والمخلوقات، ولم يَفرِض الشرعُ على الإنسان أُسلوبًا أو كيفية محددة يتبعها في عملية التنمية والإعمار، بل وَسَّعَ عليه في ذلك، وطلب منه الاجتهادَ في تحصيل كلِّ طريق يحقِّقُ له المصلحةَ والسعادةَ في حياته، ورسم له منهاجًا عامًا وضع فيه مناراتٍ تهديه وتُرشده إلى المصالح الحقيقية التي تصلُ به إلى السعادة، وذلك ببيانه المقاصد والأهداف من وراء إعمار البيئة من حولنا، مما جعل خُطُوات الإنسان في بنائه إيجابيةً في جوهرها لا هدَّامةً أو مُطَفِّفَةً، وجعلها لا تُخِلُّ بالعلاقات المُقَدَّرَةِ المُحْكَمةِ بين عناصر الوجود.

وإعمارُ الأرض الذي كُلِّفَ الإنسانُ به يقوم على شقين: المنهج، والبناء. والإهمال لأيٍّ من الشِّقَّين يُعتَبَر إفسادًا، فإهمال البناء والتنمية يُعَدُّ خللًا في القيام بوظيفة الخلافة، وكذلك إهمال تحصيل المنهج السَّوِيّ القائم على الالتزام الخُلُقِي والفضيلة يُفَوِّتُ الفرصةَ في جَعْلِ البناءَ حضاريًّا يُحَقِّقُ للإنسان السعادة.

فَطُغيان الجانب المادِّي جعل الإنسانَ لا يُبالي بإفساد الأرض بالنُّفايات الذَّرِّية والنَّووِيَّة والإشْعاعِيَّة وغيرِها، والتي تَتَخَلَّف عن عمليَّة إنتاج الطاقة، تحت تأثير التَّلَهُّفِ إلى حصول المصلحة المباشرة السريعة، فَفَقَدَت الأرضُ كثيرًا من صلاحيتها للعِمارة والعطاء.

ولم يَكْتَفِ القائمون على الفلسفة المادية بالإعراض عن

المنهج السَّويِّ القائم على الفضيلة والقِيَمِ- بل رَاحَ يُفسِد في هذا المنهج ويُلَوِّثُهُ بما يَبُثُّهُ من ثقافة الجِنس والعُرْيِ والعُنف، أو يدعو إليه من اعتقادٍ في الإلحادِ والخُرافات.

وأما رابعًا: المحافظة والمحبة

إن الإسلام تعامل مع الطبيعة والكون من مُنطلَقِ الحُبِّ والاحترام، وهو مستوىً رفيعٌ يَزيد على مستوىً المحافظة والتنمية، فالإسلام وَجَّهَ الإنسانَ إلى إنشاء عَلاقة بينه وبين الجَماد فيها مشاركةٌ وحَنِين وشوق، فالكون في المنظور الإسلامي طائع لله يُسَبِّحُ ويسجد، يحب الطائعين ويبكي رحيلَهم عن الدنيا، ويبغض العاصين الكافرين ولا يبالي بزوالهم وهلاكهم؛ وذلك لأن الطائعين متناغمون متشاركون معه في أداء السجود والتسبيح، أما الآخرون فهم معاندون متنافرون مع كل ما يحيط بهم.

ونحن نرىٰ الرسول ﷺ حينما خرج من مكة للهجرة عَبَّرَ عن حُبِّهِ وتَعَلُّقِهِ بالأرض التي نشأ فيها وتربَّىٰ، حيث قال وَاقِفًا عَلَىٰ الْحَزْوَرَةِ[1]: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ**

(١) سوق مكة، وقد دخلت في المسجد لَمَّا زيد فيه. انظر: ياقوت الحموي: «معجم البلدان»: ٢/٢٥٥. دار الفكر- بيروت.

إِلَى اللهِ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[1].

فالنبي ﷺ أحب الأرض (الجماد) لفضلها وكرامتها عند الله وعنده، حيث شَرُفَتْ بأن كان فيها أولُ بيت وُضِع للناس، ولكن الرسول في ذات الحين أبغَضَ الإنسان لفعله الجحودَ والكفرَ والجهلَ والفسادَ والإعراض.

وقد حَنَّ الجِذْعُ لرسول الله ﷺ حُبًّا، وأنَّ أنينَ العِشار فَسَمِعَ صَوْتَه من كان بالمسجد مِن الصَّحابة، فلم يُعْرِضْ عنه النبيُّ ﷺ، بل جاوَبَهُ وتفاعل معه، فنزل وذهب إليه فالتزمه ومسح عليه حتىٰ سكن.

وتلك رؤية تميَّز بها الإسلام، فقدَّم رؤية متكاملة للكون تدعو الإنسان إلىٰ المحافظة عليه وحسنِ الانتفاع بما فيه من موارد.

(١) أخرجه الترمذي: ٥/٧٢٢ برقم (٣٩٢٥) وقال: حسن غريب صحيح، وابن حبان في «صحيحه»: ٩/٢٢ برقم (٣٧٠٨).